الشخص الثالث

لم يكن قد مضى على إقامتى فى مدينة ليدز أكثر من شهرين قضيتهما بين الجامعة والمنزل، ما حاولت أن أختلف فيهما إلى مراقص تلك المدينة الجميلة ومشاربها وملاهيها لألهو بعض الوقت، حتى عطلة آخر الأسبوع كنت أقضيها فى غرفتى بين الكتب. ولم يكن يعترينى من كل هذا ملل أو سأم؛ فقد درجت على مثل هذا النوع من الحياة منذ الصغر ومنذ أدخلت المدرسة فى مصر، وتعودت حياة الجد، ولم أكن لأغيرها بعد أن رأيت أن النجاح كان حليفى فى كل مراحل حياة الدراسة. وكان أبى - رحمه الله - يفخر بى ويشجعنى على هذا ويصرفنى - بشتى المغريات وصنوف الحيل - عن الألعاب الرياضية وغيرها من الجمعيات الثقافية. وقد أدركت الآن أنه وإن يكن النجاح قد حالفنى، فقد خرجت من معركة المدرسة بنظر قصير وجسم هزيل وخبرة قليلة بشؤون الحياة.

وفى يوم الأحد التالى لانقضاء هذين الشهرين كنت جالساً فى الغرفة أطالع كعادتى، وإذا بصاحبة المنزل تدق الباب وتستأذن فى الدخول، وقمت لاستقبالها؛ فدخلت وقالت لى وفى صوتها رنة العطف - وفى الحق أن هذه المرأة كانت لى فى هذه الغربة أمًّا مؤنسة:

— إنك يا مستر ريدى غريب الأطوار. إن أهالى ليدز فى مثل هذا اليوم يغادرون المدينة فتياناً وفتيات، أزواجاً وزوجات ومعهم أطفالهم، إلى الريف الجميل يستمتعون بمناظره الخلابة. وإنى لأعجب أن يقبع شاب فى مثل سنك فى غرفته يوم الأحد كما تفعل العجائز والمرضى، وما كان أحوجك وأنت تدرس طوال الأسبوع إلى الخروج فى مثل هذا اليوم لتجدد نشاطك. وقد تألمت لك وفكرت طويلا فيما قد يؤول إليه حالك إذا أنت انصرفت إلى الدرس وحده.

وها أنت ذا ترى منظارك السميك وجسمك الهزيل ، فماذا أنت صانع بعد هذا ؟ يجب يا عزيزى أن تقرن الجد بشىء من اللهو البرىء . وكم يسعدنى أن يكون إلى جانبك فتاة طيبة الخلق ترتاد وإياها الحدائق أيام الآحاد والأعياد . وإنى موقنة بعد ذلك أنك لن تأسف على هذه الساعات السعيدة ... فبعد سنوات قد تتزوج وتكون لك أسرة وتثقل كاهلك هموم الحياة ، وحينئذ تفتش بين طيات الماضى عن هذه الساعات السعيدة ، وسوف تذكرها ، وستظل تذكرها دائماً ؛ لأنك لا تستطيع إلا أن تذكرها . وإنه ليسعدنى أن أخرج بك من هذه العزلة وأدعو إلى منزلى يوم الأحد القادم بعض الفتيات والفتيان — ومن بينهم فتاة من أسرة فى الريف كنت أسكن إلى جوارهم قبل زوجى إلى المدينة — وقد اخترت لك هذه الفتاة لأنها جميلة ، وعلى شىء من الثقافة ، كما أنها على خلق كريم . فإن رغبت فى هذا فسأكتب لأبيها أطلب إليه أن يسمح لى بأن أضيفها عندى ليلة الأحد . وإنى إنما أفعل ذلك لأدفع عنك الضجر ، ولأدخل عليك شيئاً من السرور . فهل أنت راض عن هذا ؟ وهل لى أن أكتب لأدعو هذه الضيفة الكريمة ؟

ثم أمسكتْ . وفكرتُ من جانبى فيما قالت ، وتذكرت أبى وشدة حرصه على أن أكون ذلك الطالب الذى يصل ليله بنهاره بين الكتب ، وذكرت كذلك أن النجاح كان حليفى فى هذه الحياة المضنية الشاقة ، ولاح لى فى هذه الآونة خيالى فى المرآة ، فرأيت منظارى السميك وجسمى الهزيل ، وفى حركة عصبية قلت لصاحبة المنزل وقد انتصبت واقفة أمامى يشع من عينيها بريق فيه رحمة وفيه عطف كثير :

— إنى راض يا سيدتى عن كل ما تقترحين ، وإنى لك لشاكر .

وكان يوم الأحد ، وحضرت الفتاة فيمن حضر ، ونعمتُ مع الجماعة بأطيب وقت ، وانقضى اليوم على خير ما تنقضى به الأيام ، وخرجت أصحب الفتاة ، وركبت وإياها قطار الضواحى ، وتحادثنا كثيراً فى رحلتنا القصيرة ، فسألتنى عن مصر وعن آثارها وتاريخها . ومر القطار ينهب بنا الأرض ، حتى إذا ما أشرفنا على قريتها طلبت إلىّ فى أدب جم وفى شىء من الاعتذار ألا أصحبها إلى منزلها ؛ لأنها لا تود أن تظهر مع غريب فى طرق القرية الصغيرة ، وهى تخشى أن يؤدى ذلك إلى فسخ خطبة شقيقتها ، فقد يتقول الناس عليها وتلوكها ألسنة السوء . فنزلت على إرادتها ورجعت أدراجى بعد أن ودعتها فى المحطة .

نمت ليلتى نوماً هادئاً بعد أن فكرت طويلا فى تلك الفتاة الفاتنة . فلما أصبحت قابلت ربة البيت ، فابتسمت وسألتنى :

— كيف حالك الآن يا مستر ريد ؟

ثم أردفت :

— هل لك فى أن أدعو صاحبتك مرة أخرى لتمضى عطلة آخر الأسبوع عندنا؟

فأجبتها على الفور أجزل لها الشكر وأقول لها افعلى بربك وادعيها كل أحد، وانحنيت وخرجت وهى تشيعنى بنظرات الأم العطوف، ولكن فى شىء من الخبث .

وحضرت نورا وكنت أخرج معها للنزهة فى الرياض ، واشتركت معها فى أندية رياضية عدة . ولكن ذلك كله لم يشغلنى عن الدرس والتحصيل ، وحمدت الله على ما آلت إليه حالى ، فقد زال عنى الهزال والضجر .

تعددت زيارات نورا لمنزلنا ، وتوثقت بينى وبينها صلات الود . وعندعودتى ذات يوم من الجامعة رأيت صاحبة البيت تستقبلنى بالباب لتقول لى إن والد نورا فى غرفة الاستقبال وقد حضر يريد مقابلتى ، فدخلت غرفتى وأنا أفكر فيما فجأتنى به ، وأفكر فيما دعا هذا الرجل إلى الحضور وأنا لم أعرفه من قبل ولم تقدمه إلىّ ابنته ، وقد حظرت علىّ ألا أصحبها إلى منزلها ، فما الذى حدث وأنا لم أفعل شيئاً ألام عليه ؟ جال كل ذلك بخاطرى وشاعت الهواجس فى نفسى وأنا رجل شرقى أحسب حسابا لكل خطوة فى مثل هذه الأمور، وأعرف عواقب هذه المقابلات، وأنا ما زلت كذلك عضو بعثة وأخشى على مستقبلى ، فماذا عسى أن تكون نتيجة هذه الزيارة المفاجئة ؟ ثم طفقت أفكر وأخذت رأسى بين يدى وجعلت ألعن صاحبة المنزل وأنحى باللوم على نفسى أن قبلت اقتراحها ، وتوهمت أن لعنة الله قد نزلت بى لأنى حدت عن الطريق التى رسمها لى أبى .

وبعد هنيهة دقت صاحبة المنزل باب غرفتى، ولعلها استبطأتنى، وقالت :

— أسرع يا مستر ريدى ، فإن والد نورا فى انتظارك . . .

أفقت من أحلامى ، وبدلت ملابسى ثم استجمعت شجاعتى وسرت فى خطى ثابتة إلى غرفة الاستقبال ، فرأيت رجلا فارع الطول ، يناهز الخمسين ، يخف لمقابلتى ويشد على يدى فى شىء من القوة ، ثم جلس وجلست ، وبعد فترة غير قصيرة قال لى فى هدوء :

— لقد أخبرتنى نورا كل شىء . . .

ولم يكد يتم كلمته حتى تصببت عرقا ، ولكنه عاد يقول :

— إنك كنت كريما يا سيدى مع ابنتى ، وقد أخبرتنى عن عنايتك بها ، وكيف أنك كنت تهب لها بعض وقتك وتسعدها ، وقد حضرت لأشكر لك صنيعك . وفى الحق يا بنى أنى لا أستطيع أن أفيك حقك من الشكر ، فأنا أعيش وأسرتى فى جو يسوده الهدوء فى منزلنا الريفى ، ولم يكن ليختلط بنا إلا نفر قليل من أهالى القرية ، ولم يكن شىء من المرح يعرف طريقه إلى دارنا إلا بعد أن تمت خطبة ابنتى الصغرى ، وقد قدر لهذه الخطبة أن تفسخ . وبرمت أسرتى بهذا الهدوء المطلق وبخاصة زوجتى ، فلم أجد بدًّا من أن أدعو أحد معارفى ليقيم معنا ونتقاضى منه أجرا ، فلا يستشعر خجلا فى ضيافتى التى قد تطول . وهذه عادة بلادنا نعمد إليها لنغير من جو الضجر ونقلل من هذا السكون الممل . وها قد عاد إلى بيتنا شىء من السرور ، وقد شكرت هذا الرفيق من قبل ؛ لأنه سرَّى عن زوجى وابنتى الصغيرة ، كما شكرت لك الآن مثل هذا الصنيع الذى قمت به نحو نورا . . .

ووقف الرجل وسلَّم وانصرف وأنا لا أصدق أنه ما حضر حقا إلا ليشكر ، وأخيرا انقشعت وساوسى وحمدت الله على هذه النتيجة .

سافرت من ليدز إلى باريس لأتم بعض البحوث الخاصة برسالة الدكتوراه التى اعتزمت أن أتقدم بها إلى الجامعة بعد سنة . وانقطعت أخبار نورا عنى ولم نتراسل طوال هذه المدة ، ثم عدت إلى ليدز وقابلت الفتاة مصادفة ، فقالت لى إنها تسكن الآن مع أمها وأختها ووالدها الجديد فى المدينة وتركتنى مسرعة لأنها كانت على موعد مع أمها . ووقفت هنيهة أتبعها نظرى وأنا لا أفهم مما قالت شيئا ، ثم رجعت إلى غرفتى ، ودعوت صاحبة المنزل وأعدت على سمعها هذه الجملة التى قالتها نورا ، ورجوتها أن تفسر لى هذا اللغز وهل يستطيع الإنسان فى هذه البلاد أن يكون له والد قديم ووالد جديد ؟ فضحكت وقالت لى :

— ليس فى هذا غرابة ، وسأحدثك عن ذلك كله . لقد أخبرك والد نورا أنه ضم إلى أسرته ضيفا ، وقد حدث ذات يوم أن تقدم الزوج إلى زوجته ، وقد نمت إليه بعض إشاعات أو لعله لحظ شيئا من التغير فى سلوك زوجته ، فأخبرها أنهم لم تعد بهم حاجة إلى هذا الضيف بعد ، والخير أن يطلبوا إليه

- بعد أن ينتحلوا له المعاذير — أن يخلى غرفته . ولعله لم يشأ أن يبوح لها بشيء من الشك فى أمرها ، فتعلل بأن ابنتيه قد يتقدم من يطلب يد واحدة منهما ، واستحلفها بحبه أن تجيبه إلى طلبه . أما الزوجة فقد أجابت على الفور أنه إن فعل ذلك ، فلا بد لها من أن تهجر البيت وتلحق بهذا الضيف . ودهش الزوج لجرأة زوجته وصراحتها ، وقال لها : « أنا إنما أتكلم عن رجل استأجر غرفة فى منزلنا ، لا عن عشيق يقيم تحت سقف بيتى بين زوجى وابنتى . وهل أستطيع أن أفهم من قولك هذا أن بينكما علاقة حب أو غرام ؟ وهل لك أن تصارحينى بكل ما حدث بينكما ؟ فظلت الزوجة هادئة فترة ، ثم ما لبثت أن قالت لزوجها إنها تحب هذا الرجل ، وإنها لا تستطيع أن تفارقه أو تعيش بدونه لحظة واحدة . فاعتلجت فى صدر الرجل عوامل عدة من خير وشر أخذت تتناوبه ، وأخيراً انتصر عنصر الخير فى صدر الرجل الذى كان يحب زوجته ويعبدها ، فاعتدل فى مكانه وقال لها : « أواثقة ياعزيزتى أنه يبادلك هذا الحب ؟ » فأمنت على ذلك . فرجاها زوجها أن تدعو الضيف إلى مقابلته على انفراد ، فحضر وأراد أن يعتذر عن كل ماحدث ، ويقول إنه لم يقصد إلى ذلك ، ولكن الزوج قاطعه فى حدة وصرامة ، وقال له : « لقد عرفت كل شيء ولست ألومك أو ألومها على عاطفة جامحة كثيراً ما تأخذ بلب الإنسان وتغلبه على أمره ، وليس لى إلا أن ألوم نفسى ، فأنا الذى مهدت لكل ما حدث ، وقربت بين قلبين كانا بعيدين . ولست أفكر ياسيدى فى الانتقام من أحد بعد أن أربت سنى على الخمسين ، ولا أذكر أن فؤادى انطوى يوماً ما على حقد أو ضغينة ، فما كان ليعرف موجدة أو يكن حفيظة . ولندع الكلام فى هذا جانباً ، وما أحسب أنك تهتم له الآن ، وقل لى بربك هل تحبها حقاً ؟ وإذا أنا أخليت سبيلها ، فهل تقبلها زوجاً ؟ وهل تعاهدنى على ذلك كرجل شريف ؟ فإنى أحبها كذلك ، ولا أرضى لها أن تعيش خليلة .

وذهل الضيف لما رأى من هدوء الزوج ، وزم شفتيه وظهرت على أساريره أمارات حزن عميق . وخيم فى جو الغرفة سكون لم يلبث أن بدده صوت الزوج يقول لصاحبه : « الكلمة الآن لك يا سيدى . » ولكن الضيف لم يتكلم وظل صامتاً ، ولعله حاول الكلام فلم يقو عليه ، وأخيراً ركع أمام الزوج وفى عينيه دموع وأجهش يبكى وطلب إليه أن يغفر له زلته . فقهره الزوج وقال له فى

خشونة : « ما لهذا طلبت الانفراد بك ، وإنى أطالبك الآن بأن تجيب على أسئلتى » . فوقف الضيف ومضى يتعثر واستند إلى أحد المقاعد وقال للزوج : «أجل ! إنى أحبها وسأتزوجها ، على شريطة أن تبارك لنا هذا الزواج .» فتمتم الزوج ببعض كلمات غير مفهومة كأنما كان يصلى بينه وبين نفسه ليشد أزرها ، فقد كان يخشى على هذه النفس المطمئنة أن تنال منها تلك الصدمة فتوهنها ، أو لعل الزوج فى صلاته القصيرة كان يبارك هذا الزواج المقبل الذى رسمه لزوجته ولهذا الرجل المـاثل أمامه ، أو لعله فى صلاته القصيرة كان يصب جام غضبه ويستنزل لعنة ربه على هذين المخلوقين اللذين حطما منه قلبـاً كان عامراً بالعطف والحب لأسرته الوادعة .

وخرج الرجلان وافترقا دون أن يتبادلا كلمة أو تحية . واعتزم الزوج أمرا أصره فى نفسه ، وغادر منزله وعاد بعـد أسبوع فقابل زوجه وقدم لها وثيقة وقال لها : « ستجدين فى هذه الوثيقة يا عزيزتى ما نقدمينه إلى المحكمة برهاناً على خيانتى العهود الزوجية . فقد صاحبت إحدى بنات الهوى وعاشرتها بضعة أيام فى أحد الفنادق ، وقد أثبت كل هذا فى الوثيقة — فما عليك إلا أن تتقدمى بها للمحكمة مطالبة بالطلاق ، وستنزل علىَّ لعنة القاضى ، ولـكنى سأتحمل هذه الصدمة ، وسأترك لك منزلى عن طيب خاطر حتى تنتهى المدة التى يحق لك أن تتزوجى بعد انقضائها .» ثم قبل زوجته وابنتيه ، وجمد الدمع فى عينيه وبرح المنزل بعد أن قدم لها هذه التضحية التى لم تكن لتظفر بزواجها الجديد بدونها.

وها أنت ذا ترى أن كل شئ قد تم — كما أراد الزوج وأرادت الزوجة — وها هى ذى نورا صديقتك قد انتقلت مع أمها وأبيها الجديد إلى المدينة ، وعاد الزوج القديم إلى منزله الريفى يعيش فيه كالراهب وحيداً إلا من رحمة الله .

وسكتت صاحبة المنزل . أما أنا فما زلت أذكر هذا الرجل الوقور الذى خف إلى ليشكرنى ، وما زالت ترن فى أذنى كلمات الشكر التى كان يتقدم بها للشخص الثالث الذى أدخل السرور على زوجه وابنتيه ، والذى غير الجو الهادئ الممل ، والذى سلبه أخيراً قلب زوجه التى أحبها وما زال يحبها .

حسين فوزى نور الدين